



Title	التأريخ لحركة الترجمة في القرن التاسع عشر
Author(s)	Elsharqawy, Abdel Rahman Tareq
Citation	アラブ・イスラム研究. 2019, 17, p. 80-98
Version Type	VoR
URL	https://doi.org/10.18910/106043
rights	
Note	

The University of Osaka Institutional Knowledge Archive : OUKA

<https://ir.library.osaka-u.ac.jp/>

The University of Osaka

التأريخ لحركة الترجمة في القرن التاسع عشر

عبد الرحمن طارق الشرقاوى

**Historiographical Writings on 19th Century
Translation.**

Abdel Rahman Tareq Elsharqawy

抜 刷

「アラブ・イスラム研究」第17号 2019年

Journal of Arabic and Islamic Studies

مجلة الدراسات العربية والإسلامية

Vol. 17, 2019

التأريخ لحركة الترجمة في القرن التاسع عشر

عبد الرحمن طارق الشرقاوى *

Historiographical Writings on 19th Century Translation.

Translation has played a key role, or roles, during the 19th century in the Arab World. Translation was the medium of communication between European experts and instructors and Egyptian students. It was also a direct source to get modern knowledge and ideas for modernization by making European books understood for Egyptians. We can find a third role which was indirect: Translation made it possible to raise doubts about the Basic purpose for translation stated by Mohammed Ali and expressed by Al-Tahtawi. For them, translation was targeting The concrete, materialistic and practical part of the European civilization. On the contrary, books about history and society as well as literary texts were translated into Arabic in the last three decades and became influential in modern Arabic culture. Translation in the 19th century is a key witness of the changes in the century and it led to new organizational institutions such as establishing schools and administrative departments in the Egyptian governments.

This all requires a study in the history of translation in the mentioned period with special focus on the vogy areas which need special study in the future. This paper aims at rebuilding the image of 19th-century translation through three important attempts in writing its history. The focus here will be given to books that were totally devoted to studying the history of translation in the 19th century, leaving the shorter attamepts and partial ones to a future study.

١ القرن التاسع عشر:

القرن التاسع عشر ليس كغيره من القرون، بل هو من تلك القرون الاستثنائية التي شهدت فيها الحياة العربية تغيرات وتحولات أعادت تشكيل المنطقة بثقافتها ورؤاها بعد أن غيرت موازين القوى الفاعلة فيها. كانت التغيرات على كل المستويات. في هذا القرن تبدلت معادلات السلطة وتغيرت القوى الفاعلة المؤثرة في الثقافة العربية أكثر من مرة، وصارت الثقافة القائمة في صراع مع الوافدة في مجالات الحكم والعمل والحياة. إنه قرن من القرون التي أصبح الشرق بعدها غير ما كان قبلها. وهو في هذا يستحق التصنيف بعد

* Abdel Rahman Tareq Elsharqawy. Assistant Professor at the Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, Cairo University. Specially Appointed Associate Professor at the Garaduate School of Language and Culture, Osaka University.

القرن السابع الميلادي/الأول الهجري الذي شهد ظهور الإسلام وتوحد صفوف العرب في ظل دولة واحدة قوية وانطلاقهم في غزوات وفتوحات وسعت مجال سطوتهم أبعد من حدود الجزيرة العربية بكثير.

وإذا كان القرن السابع الهجري قد شهد تحولاً كبيراً بعد سقوط بغداد فإن هذا قد حدث تدريجياً وبدا احتمالاً قريباً وطبيعياً في ظل تفكك الدولة وضعف سيطرتها على أراضيها لقرون. ويتفق سقوط بغداد وتدميرها على أيدي التتار مع ما كان من سقوط الأندلس وخروج العرب منها فارين بأرواحهم بعد ذلك بقرنين تقريباً. يتفوق القرن التاسع عشر في إحساس الصدمة وفي سقوط الحواضر العربية ذاتها في أيدي قوى استعمارية جديدة شعر العرب بالتفوق عليها طويلاً. وقد واجه العرب مع هذا السقوط شعوراً واضحاً بالضعف والتأخر في كثير من المجالات. ليس هذا فحسب، بل إن العرب بدأوا يفكرون — وربما للمرة الأولى — في ضرورة الأخذ عن غيرهم في مختلف الفروع لأنهم تخلفوا عن الركب بعد عز وازدهار. هذا ما نتج عن الحملة الفرنسية على مصر والشام في نهاية القرن الثامن عشر.

٢ بداية النهوض:

يشيع بين المهتمين بالقرن التاسع عشر وصفه بأنه قرن النهوض وأن ما حدث به كان نهضة حقيقية بعد عصور من الخمول والضعف، وأن العامل الأبرز في هذا النهوض الذي شمل كل جوانب الحياة في القرن التاسع عشر في العالم العربي — بل وفي الشرق عمومًا — هو الاتصال المباشر بالغرب ودخول أنظمتهم في الحكم والإدارة والتعليم بل والحياة اليومية. والأمثلة على هذا الرأي أكبر من أن تحصى.

في المقابل يمكن أن نسمع هنا وهناك أصواتاً مغايرة تحاول إظهار أن الشرق كان في سبيله إلى النهوض والتقدم حتى لو لم يكن العنصر الأوربي الوافد قد جاء. فالعقاد — في معرض حديثه عن القرن التاسع عشر خلال كتابه عن محمد عبده — يشير إلى حادثة وقف فيها الأهالي في وجه المماليك ولم يقوموا بمجرد تمرد مما كان المماليك يجيدون إخماده، بل إنهم فرضوا عليهم التوقيع على وثيقة أطلقوا عليها "الحجة الشرعية" التي تمثل نوعاً من موثاق العلاقة بين الحاكم والمحكوم. ويذكر العقاد أن هذا حدث بوساطة رجال الأزهر. ورجال الأزهر هم من تم تهميشهم لاحقاً خلال القرن التاسع عشر وما بعده عدة مرات.^(١)

(١) عباس محمود العقاد: عبقرى الإصلاح والتعليم — الإمام محمد عبده. وردت الإشارة إلى هذه الأحداث في الفصل الذي يحمل عنوان "القرية"، ونحن نشير إليها هنا عن العقاد رغم أنه ليس مؤرخاً وليس مصدر الخبر، ولكنه هو الذي وظف الخبر هذا التوظيف الذي نتبناه.

كما يشير العقاد في نفس الكتاب إلى ما كان من صراع داخل الأزهر بين القديم والجديد. وكما تم تهميش الأزهر، تعرضت الكنيسة القبطية في مصر لتهميش آخر في كتابة التاريخ وإبراز سعيها للتحديث والإصلاح. ليس من الشائع أن يتحدث الناس عن دور البابا كيرولوس الرابع المعروف بين الأقباط باسم "أبو الإصلاح"، وقد قام بعمل جليل في منتصف القرن التاسع عشر سعيًا إلى تحديث العمل في الكنيسة وتطوير مؤسساتها. استحدث البابا كيرولوس الرابع نظامًا تعليميًا لم يكن موجودًا من قبل، وجاهد في سبيل تشجيع شعب الكنيسة على إرسال أبنائهم للدراسة ودعمهم ماديًا. بل قام البابا بتغيير مكان المدرسة في القاهرة لتناسب أكبر عدد من التلاميذ. وكان إنشاءه للمدارس في وقت بدأت فيه الدولة نفسها في التراجع عن الاهتمام بالمدارس في ظل رؤى متباينة حول أهمية التعليم، وفي ظل أزمات مالية طاحنة. كما أنشأ مطبعة حديثة، بل واتخذها مقرًا له في بعض الأوقات. وبالجملية فإن البلاد كانت تعيش حالة من الطموح في الإصلاح والتغيير لمواجهة مشكلاتها القائمة.^(٢)

يمكن أن نذهب أبعد من ذلك فنقول: إن تبني النموذج الوافد المعد سلفًا كان بمثابة حل سريع لكنه في ذات الوقت قتل ملامح التطور الداخلي الطبيعي القادر على حشد التأييد وتحقيق النتائج مع المحافظة على المرونة المطلوبة خلال العملية الطويلة المعقدة، وذلك البديل الوافد لم يكن التعامل معه مرناً بالقدر الكافي لأن من تبناه وسعى إلى تطبيقه رآه جاهزًا مكتملاً وظن أنه لا يصلح إلا هكذا.

٣ المشهد اللغوي في العالم العربي في القرن التاسع عشر والحاجة إلى الترجمة:

يبدو المشهد اللغوي في القرن التاسع عشر معقدًا حيث يوجد في إقليم كبير ممتد - يعتبر نفسه ويعتبره أهله إقليمًا واحدًا ثقافيًا ودينيًا - عدد من اللغات واللهجات: لغة عربية هي لغة السكان وهي لغة الدين والعبادة لأغلبهم؛ لغة تركية هي لغة الإدارة؛ لغات أوروبية متعددة منها الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية — التي كانوا يسمونها النمساوية أحيانًا — إضافة إلى اليونانية والفارسية. لكننا يمكن أن نلاحظ أن اللغات لم تكن كلها على نفس القدر من الحضور في

(٢) راجع ترجمته في الجزء الأول من كتاب جورجى زيدان: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر. كما يمكن الحصول على معلومات تاريخية موثقة عن إنجازاته في:

Magdi Guiguis & Nelly Van Doorn – Harder: The Emergence of the Modern Coptic Papacy.

المشهد. فهناك لغة محلية هي العربية، وهناك اللغة التركية — لغة السلطة والإدارة — وبها تصدر القرارات والقوانين الأساسية، كما ترد بها المراسلات. تأتي بعد ذلك اللغة الفرنسية التي جاءت مع الحملة الفرنسية على مصر والشام. استمرت اللغة الفرنسية في الحضور بعد ذلك لعقود عندما استفاد محمد علي من خدمات الفرنسيين في مشروعه التحديثي الكبير الذي استمر فترة طويلة خلال القرن التاسع عشر. وكانت الحاجة إلى الفرنسية بمستوياتها الشفاهي والمكتوب ضرورية للتواصل في الشؤون الإدارية والعملية ولنقل العلوم والمعارف. تأتي الإنجليزية في مرتبة تالية وبظهور متأخر نسبياً مع قدوم الحملات التبشيرية إلى الشرق — خصوصاً إلى الشام — ثم مع توسع النفوذ البريطاني في الشرق عمومًا وفي مصر على وجه الخصوص. تمكنت الإنجليزية في مرحلة متأخرة من القرن التاسع عشر من تغيير ترتيبها والتقدم قليلاً عندما صارت تحتل مكان اللغة التركية في الجانب الإداري في مصر مع الاحتلال وعندما صارت لغة للتعليم في الشام ثم في مصر.

في ظل هذا المشهد اللغوي متعدد اللغات، ظهرت الحاجة إلى الترجمة بأشكال متعددة لنقل الرسائل التواصلية والمعرفية في العالم العربي. ويمكننا الاعتقاد أن الترجمة أخذت الشكلين الشفوي والتحريري منذ البداية. ولا شك أنها لم تكن التجربة الأولى في هذا المجال لأن العرب كانوا على اتصال مع محيطهم الجغرافي متعدد اللغات منذ قرون. لكن الترجمة في هذه المرحلة اتخذت شكلاً جديداً بارتباطها بمستويات أكثر تنوعاً واعتمادها على نظام تعليمي أحدث وتبليتها لأغراض جديدة، ولأنها صارت وسيلة للتحديث وليس مجرد المعرفة. تأتي الحاجة إلى دراسة تاريخ الترجمة في العالم العربي خلال القرن التاسع عشر لتحديد دورها من مشروع التحديث الذي خاضه العرب — أو أُجبروا على خوضه — ولبیان كيفية ممارسة نشاط الترجمة والأسس التعليمية التي اعتمدت عليها من أجل تحقيق النجاح لها وتخطي المشكلات التي تنشأ عن هذه الممارسة. وربما لعبت الترجمة في هذا السياق أكثر من دور: فهي أحياناً وسيط عندما يتعلق الأمر بالبعثات، وأحياناً رافد أساسي من روافد التحديث عندما جرى الاعتماد عليها للحصول على المعارف التي رأى العرب أنهم يفتقدونها، كما أنها — وهذا ما يندر الإشارة إليه — ربما قامت بدور كاشف لمشكلات مشروع التحديث كله. فإذا كانت عملية التحديث اعتمدت في البداية على مقولات ترسخ لضرورة قبول التفوق الأوروبي في المجالات العملية المتصلة بالعلوم الطبيعية والرياضية والطب والهندسة والقانون وغيرها، فإن الأجيال الأولى في القرن التاسع عشر رأت أن العرب متفوقون في مجالات الدين والأخلاق واللغة والأدب. ورغم ذلك، فقد شرع العرب منذ منتصف القرن يترجمون أعمالاً أدبية أوربية منذ منتصف القرن التاسع عشر.

٤ محاولات للتأريخ:

يمثل موضوع الترجمة محوراً مهماً من محاور الاهتمام بالقرن التاسع عشر، وقد بدا هذا واضحاً منذ عقود طويلة. فقد رأى أبناء القرن التاسع عشر أن الترجمة علم وأن هذا العلم هو من العلوم الأساسية اللازمة للأمة، مثله في ذلك مثل العلوم الطبية والهندسية والطبيعية التي رأوها ضرورية لهم.^(٣) واستمر اهتمام العرب بالترجمة وإدراكهم لأهميتها للحياة العربية بمختلف جوانبها، فقام مجمع اللغة العربية بالقاهرة بتقديم جائزة خاصة لمن ينجز عملاً يؤرخ به للترجمة في القرن التاسع عشر. كانت فكرة الجائزة والمسابقة الخاصة بالترجمة بشكل عام من مقترحات السيد أمين الجميل عضو المجمع، ويعود تاريخ هذه المسابقة إلى أربعينيات القرن العشرين. قادت هذه الفكرة الباحثين المهتمين إلى إنجاز محاولتين مهمتين في زمن قصير: كتاب جاك تاجر عن الترجمة في القرن التاسع عشر، ورسالة جمال الدين الشيال للماجستير عن الترجمة في زمن الحملة الفرنسية ثم الترجمة في عصر محمد علي. ظهرت محاولة ثالثة بعد عقد واحد من الزمان وإن كانت في مجال متخصص وبلا علاقة ظاهرة مع مسابقة المجمع وهي رسالة لطيفة الزيات للدكتوراه عن حركة الترجمة الأدبية من الإنجليزية بين ١٨٨٢ و ١٩٢٥.

وإذا كان الكتاب الأول يغطي القرن كاملاً في محاولة طموحة لتقديم تاريخ شامل لحركة الترجمة في القرن التاسع عشر، فإن العمل الثاني سعى إلى تقديم تاريخ محدود بعصر محمد علي دون غيره. وعلى النقيض منه جاء العمل الثالث ليغطي الفترة منذ الربع الأخير من القرن وإن كان العنوان يركز على البداية من الاحتلال البريطاني. ولم يقتصر هذا العمل على القرن التاسع عشر، وإنما امتد إلى الربع الأول من القرن العشرين. سوف نركز في الصفحات التالية على هذه المحاولات الثلاث باعتبارها المحاولات المكتملة للتأريخ للترجمة إلى العربية في القرن التاسع عشر، وسنترك البحث في المحاولات الأخرى الواردة ضمن دراسات أخرى من قبيل تاريخ الفكر أو تاريخ الأدب — وهي كثيرة ومتنوعة عربياً وأوروبياً — لبحث مستقل.

يمكننا أن نرصد عددًا من السمات المشتركة بين الأعمال الثلاثة تتصل باعتمادها على مصادر متشابهة تقريباً في تقديم مشهد الترجمة في القرن التاسع عشر، ثم نلاحظ اختلافاً نسبياً وتميزاً لعمل لطيفة الزيات في تركيزها على لغة واحدة وعلى نوع واحد هو الأدب. ويشترك عمل جاك تاجر مع عمل جمال الدين الشيال في تبنيهما خطة متشابهة

(٣) رفاع الطهطاوي: تلخيص الإبريز في تلخيص باريز. ضمن كتاب أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي. دراسة وتعليق محمود فهمي حجازي. ص: ١٥٢. كرر رفاع الطهطاوي حديثه عن الترجمة وأهميتها باعتبارها علماً ضمن كتابه مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية. ويندسور. مؤسسة هندواي. ٢٠١٨. جاء حديثه عن الترجمة منذ المقدمة مروراً بما أنجزه محمد علي في مصر، ثم في السودان.

إلى حد كبير. وواضح من القراءة الأولى أن جمال الدين الشيال كان على معرفة بعمل جاك تاجر، كما أن لطيفة الزيات تشير إلى كل منهما مراراً في الجزء الأول من رسالتها. وكان جاك تاجر قد حصل على جائزة المجمع المصري عن كتابه عام ١٩٤٣ ثم حصل جمال الدين الشيال على جائزة المجمع عن كتابه عام ١٩٤٦.

٥ مصادر التأريخ:

بالنسبة للمصادر التي استقت منها الأعمال الثلاثة مادتها، نلاحظ أن كتابات الرفاعي وأمين سامي وأحمد عزت عبد الكريم وعلى مبارك وإبراهيم عبده وجورجي زيدان تتكرر في الأعمال الثلاثة ودون أن ينتج عن التكرار إضافة أي جديد في المعلومات أو في وجهة النظر. يمكننا أن نفهم أن بعض هذه الأعمال كانت من قبيل نشر الوثائق الرسمية في مصر — تقويم النيل لأمين سامي مثلاً — أو أنها كانت دراسات حديثة — مثل دراسة أحمد عزت عبد الكريم —، ويمكننا أيضاً أن نتفهم المسافة الزمنية القصيرة بين كتابي جاك تاجر وجمال الدين الشيال — بل ولطيفة الزيات أيضاً — لكننا نرى فقط أن التعامل مع المصادر المتشابهة ظل يؤدي إلى نفس النتائج دون وجود داع للتكرار. أشار جمال الدين الشيال في مقدمة كتابه إلى معرفته بجاك تاجر وإنجازه ووصفه بالصديق، لكنه لا يشير إليه في داخل الكتاب نفسه ولا يرجع إليه.^(٤)

اعتمدت لطيفة الزيات على كل من جاك تاجر وجمال الدين الشيال في حديثها على تاريخ الترجمة بشكل عام، كما استخدمت عدداً من المصادر التي رجع إليها كل منهما لكنها أضافت مصادر أخرى أكثر تفصيلاً فيما يخص البحث في الأعمال الأدبية المترجمة وجهات نشرها وطرق النشر؛ فقد أظهرت اهتماماً بالدوريات الصادرة في فترة بحثها وخصوصاً المقتطف والأهرام والهلال وسلسلة مسامرات الشعب وغيرها.

من المهم هنا أن نشير إلى أن الشيال كان أكثر دقة من جاك تاجر ولطيفة الزيات في توثيق مصادره ومراجعته، فهو يشير بانضباط تام إلى اسم المؤلف أو المترجم، ثم الكتاب، ثم مكان الطبع ثم تاريخه. في المقابل نرى كلاً من جاك تاجر ولطيفة الزيات قد يشبتان بعض هذه التفصيلات لبعض الكتب ويهملانها لغيرها من الكتب. ويكفي أن نراجع توثيق لطيفة الزيات لكتابي تاجر والشيال لنرى أنها لم تسم للأخير ناشراً، ولم تذكر للأول تاريخاً.

(٤) جمال الدين الشيال: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي. ص: ن.

٦ خطط عرض المادة التاريخية:

فيما يتعلق بالخطة التي اعتمد عليها كل من تاجر والشيال — ولطيفة الزيات إلى حد ما — سنلاحظ وجود تصور عام بضرورة اتباع التقسيم الزمني الخاص بالولاية والحكام أو بالسيادة الداخلية أو الخارجية. فتاجر يقسم عمله حسب فترات الحكم المتعاقبة: بداية من الحملة الفرنسية؛ محمد علي؛ عباس؛ سعيد؛ إسماعيل. ثم يعود إلى استعراض وضع الترجمة في المؤسسات التعليمية وفي المؤسسات الإدارية واستعراض سير المترجمين وأبرز ما قدموه. ثم اختتم عمله بتقييم تجربة الترجمة وعلاقتها بحال اللغة العربية وطرق التأليف والتصنيف بها في القرن التاسع عشر. حصر جمال الدين الشيال مجال البحث في عصر محمد علي دون غيره ورغم ذلك فإننا نرى إشارات في الملاحق لأعمال تمت بعد فترة حكم محمد علي منها — على سبيل المثال لا الحصر — قائمة أعمال السيد صالح مجدي. وقد عرض الشيال بحثه في صورة مقدمة تاريخية ثم قسم كتابه على ثلاثة أبواب أولها عن الأدوات غير المباشرة: المدارس والبعثات، والأدوات المباشرة: الكتب والمؤلفون، المترجمون، المصححون والمحررون، القواميس والمعاجم، وأخيراً الطبع والنشر. وجاء الباب الثالث القصير نسبياً ليقيم تجربة الترجمة في عصر محمد علي. وهذه تقريباً هي التقسيمات الداخلية لفصول جاك تاجر.

في المقابل جاءت رسالة لطيفة الزيات معتمدة على خطة مغايرة نسبياً تبعاً لطبيعة مادتها: فهي مقسمة على أربعة أقسام كبيرة تسبقها المقدمة العامة التي تشمل المعلومات التاريخية والإطار الزمني الذي تناولته وموقع الترجمة من الإنجليزية في العصر الحديث، وأتبع ذلك أربعة أقسام حول القص والمسرح والشعر وأخيراً المقالات والكتابات النثرية الأخرى. التزمت في ترتيب الأقسام نظاماً واحداً تقريباً. فهي تبدأ أولاً بعرض تاريخي للنوع الذي تدرسه في الأدب الإنجليزي وتاريخ تطوره وأبرز اتجاهاته، ثم تتناول ترجمات هذا النوع إلى اللغة العربية إجمالاً، وتعود لتفصل البحث في أساليبها وتقنياتها بالتوقف على نماذج تختارها من هذه الترجمات عبر فترات الدراسة الزمنية. وفي النهاية تقف لتتناول علاقة هذه الترجمات بالصحافة. ولكنها أحياناً لم تجد أية صلة بين ما عرضت له من ترجمات وبين الصحافة في فترة البحث. ومن هنا نرى أن الصحافة ليس لها حضور حقيقي في عمل لطيفة الزيات وإنما كانت مجرد مسوغ لتسجيل الموضوع في معهد الصحافة الذي كان تابعاً لكلية الآداب بجامعة القاهرة قبل أن يستقل تحت اسم كلية الإعلام. فهي تشير في أكثر من موضع إلى غياب العلاقة بين نوع أدبي ما وبين الصحافة مثل المسرح أو النثر الفني اللاروائي، وتختتم عملها بإشارة جامعة على النحو التالي: ”وقد ارتبطت الترجمة الأدبية بألوانها المختلفة — القصص والمسرحية والشعر والنثر الفني اللاروائي — بالصحافة بدرجات متفاوتة بين الضعف والقوة، فبينما كان ارتباط القصص بالصحافة ارتباطاً قوياً للغاية كان ارتباط ألوان

الأدب المترجمة الأخرى بما متسمًا بالضعف. وبينما ارتبط القصص بنوعيه الطويل والقصير بالصحافة طيلة فترة البحث استطاع القصص الطويل أن يتحرر منها أحيانًا لاجئًا إلى النشر الفردي، وظل القصص القصير يعتمد في وجوده على الارتباط بالصحافة اعتمادًا يوشك أن يكون تامًا، ولا تنشر مجموعات للقصص القصيرة المترجمة إلا قرابة نهاية فترة البحث أى في العشرينات وبصورة محدودة للغاية^(٥). في هذا الإطار نلاحظ أنها لم تفرد للعلاقة بين بعض الأنواع والصحافة فصلاً خاصاً على غرار ما بدأت به، وإنما اكتفت بإشارة سريعة إلى أن هذا النوع لم يكن له علاقة بالصحافة.

ويمكن أن نقول إجمالاً إن الطبعة الأكاديمية لعمل جلال الدين الشيال ولطيفة الزيات، والمدى الزمني المتاح لهما قد سمحا بقدر أكبر من الانضباط في طريقة تصنيف المادة وعرضها، مقارنة بكتاب جاك تاجر الذي أعده تلبية لإعلان المجمع عن مسابقة. وكان بوسعه أن يعود ويعدل فيه بفضل عمله في قصر عابدين، لولا أنه رحل في سن مبكرة.

ومن الواضح أيضاً أن عمل لطيفة الزيات يظهر فيه الجهد الوفير في جمع المادة وفي البحث في تفاصيل الترجمات بدقة واضحة إذا استثنينا القسم الأول من عملها الذي تضمن المقدمات العامة، ففيه قدر واضح من عدم الدقة نكتفي بمثال واحد لبيان: ”وكان من الطبيعي والأمر كذلك أن تخرج مدرسة الألسن عدداً ضخماً من أئمة المترجمين عن الفرنسية، ومنهم رفاة رافع الطهطاوى ...“^(٦) ومعلوم أن رفاة لم يكن من خريجي هذه المدرسة، بل إن الحديث يطول عن دوره في نشأتها — وهو أمر سنعود إليه بعد قليل.

٧ أغراض الترجمة:

ثمة اتفاق بين كل من جاك تاجر وجمال الدين الشيال حول ارتباط الترجمة برغبة محمد علي في التحديث وفي معرفة ما يدور في العالم المتقدم الذي يتمثل في أوروبا. وكان من الطبيعي أن تكون الترجمة من لغات مختلفة إلى لغة يفهمها الحاكم أو لغة يفهمها رجاله. وبالتالي فقد كانت الترجمة من اللغات الأوروبية إلى اللغة التركية التي يفهمها الوالي ورجاله المقربون أو اللغة العربية التي يفهمها من اختارهم محمد علي من المصريين للقيام بالأعمال التي يكلفهم بها.

فإذا كانت اللغة الهدف قد تختلف بين العربية والتركية فإن الغرض يبقى ثابتاً وهو

(٥) لطيفة الزيات: حركة الترجمة الأدبية. ص: ٤١٧

(٦) لطيفة الزيات: حركة الترجمة الأدبية. ص: ٢٧

تلبية أوامر الوالي ورغباته في نقل معارف بعينها إلى اللغة العربية. هذا ما يشير إليه جاك تاجر عندما يحدد أسباب ازدهار الترجمة في عصر محمد علي: "وكان لازدهار الترجمة في هذا العصر سببان أساسيان؛ الأول: حاجة محمد علي الشخصية إلى معرفة الأوروبيين، والاطلاع على مؤلفاتهم العلمية والأدبية، والثاني: رغبته في نشر الحضارة الغربية والاستعانة في البدء بالأجانب لتثقيف شعبه".^(٧) يمكن أن نسجل بعض الملاحظات بناء على هذا النص؛ أولاً أن للترجمة غرض شخصي مباشر يخص محمد علي وغرض يتصل بالتوظيف الحضاري للترجمة في نشر المعارف بين من يقول تاجر إنهم شعبه، ويمكن أن نقول نحن إنهم رجاله القائمون بتنفيذ مشروعه الكبير. أما الملاحظة الثانية فتتصل بارتباط الموقف من الترجمة بشخص الحاكم عموماً؛ فتزدهر أو تخبو جذوتها بناءً على ما يريده. وهذا ما حدث في مراحل مختلفة من القرن التاسع عشر حيث ضعفت الترجمة في عهد عباس في منتصف القرن ثم عادت للازدهار التدريجي في عهد سعيد ثم انطلقت بقوة مرة أخرى مع إسماعيل. كما أن ارتباط الترجمة بالحاكم أدى إلى توزُّع ناتج الترجمة على لغتين إحداهما التي يفهمها الوالي والثانية التي يفهمها باقي المستهدفين من الترجمة.^(٨) ثم ملاحظة أخيرة تتعلق بنوع الترجمة: فواضح من النص السابق ومن مواضع أخرى في الكتاب أن الاعتماد على الأوروبيين في البداية للقيام بعملية التثقيف تطلب الاعتماد على الترجمة الشفوية وتحديدًا التبعية خلال عملية التدريس. يمكننا أن نفترض بالتالي أن جاك تاجر لم يكن يميز بدقة بين أنواع الترجمة ومستويات الدقة فيها، وأنا يجب أن نخمن ذلك اعتماداً على فهمنا للسياق.

عند الحديث عن عصر عباس نلاحظ أن جاك تاجر يبدأ بمقولة عامة تؤكد طبيعة عصر عباس الذي شهد تراجعاً كبيراً وعدم اتباع سياسة مستقرة في العمل عموماً، بينما بقي عصر سعيد الممهد للجولة الثانية من مشروع النهضة التي جاءت مع عصر إسماعيل. ويمكن أن نرى أن التركية كانت اللغة الهدف للترجمة حتى عصر عباس وخلال عملية الترجمة لخدمة التعليم حسبما ينقل جاك تاجر أيضاً عن وثائق الديوان ما يفيد أن: "... قلم الترجمة الذي أنشأه محمد علي باشا، وألحقه بمدرسة الألسن فقد أدخل عباس عليه بعض التعديلات، وقد صدرت إرادة إلى ديوان مصر الملكي بتاريخ ١٨ ذي القعدة سنة ١٢٦٤ فحوها: اطلعت على القرار الصادر في ١٤ ذي القعدة سنة ١٢٦٤ الخاص بقلم الترجمة المزمع تأسيسه من أجل الكتب المراد ترجمتها من اللغة الفرنسية إلى اللغة التركية تمهيداً

(٧) جاك تاجر: حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر. ص: ٢٣.

(٨) اقتبس جاك تاجر من رسالة أرسلها محمد علي إلى سلحدار إبراهيم باشا الذي كان مقيماً في لندن يطلب منه شراء كتاب وإرسال ترجمته التركية إليه — أي محمد علي — ليعرف منها بعض المعلومات عن إنشاء السفن. جاك تاجر: حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر. ص: ٢٦.

لطبعها ونشرها، ووافقت رغبتى تنفيذه...“^(٩) لا يعني هذا اقتصار الترجمة على النقل إلى التركية؛ صحيح أن الترجمة اعتمدت في أغلب الأوقات على الفرنسية، إلا أن اللغة الهدف لم تكن واحدة وإنما كانت هناك ترجمات إلى العربية بجانب التركية. ولم تتغير الحال جوهرياً في عصر سعيد.

وكان لا بد أن نصل إلى عصر إسماعيل لنرى تغيرات جوهرية تبدأ بانتهاء الثنائية اللغوية بين العربية والتركية والاكتفاء بالعربية وحدها في الإدارة. سيؤدي هذا حتماً إلى أن تكون العربية — دون التركية — هي اللغة الهدف. ورغم تعميم العربية في العمل والإدارة...“ فإن الحاجة أصبحت شديدة إلى الكتب المعربة لبطء حركة التأليف، فاقترضت الضرورة إنشاء أقلام للترجمة في بعض المدارس...“^(١٠)

استجد مجال جديد في الترجمة في عصر إسماعيل يتصل بالصحافة. يشير جاك تاجر إلى انتشار الصحف في عصر إسماعيل وتنوع اللغات بها ووجود ترجمات للأخبار الواردة في الصحف الصادرة بلغات أخرى مثل الفرنسية والإيطالية والألمانية — التي كانت تعرف باللغة النمساوية في ذلك الوقت — والإنجليزية، لكننا...“ لم نعرف على وجه الدقة عدد المحررين والمترجمين الذين كانوا يقومون بأعمالهم فيها. وكذلك لم نقف على أسمائهم...“^(١١)

ركز جاك تاجر على ارتباط الترجمة بالولاة والحكام وتلبية أوامرهم في هذا الخصوص، وعلى أن الأمر كله كان إما لغرض وقتي مباشر أو تعليمي يتصل بالعلوم والمعارف التي تحتاج إليها البلاد. ولا يذكر أي سبب آخر رغم أنه قدم تعريفاً مقتضباً وقائمة ببعض ما ترجم محمد عثمان جلال من كتب لم يكن من بينها ما يتصل بهذا الغرض اللهم إلا كتاباً عن المقارنة بين العربية والفرنسية، ولكن معظم الكتب التي أوردها جاك تاجر له تتصل بالأعمال الأدبية من روايات ومسرحيات وأشعار.^(١٢) واكتفى بالحديث عن الترجمة الأدبية بشكل عابر مع حديثه عن خروج الترجمة إلى تلبية حاجة الصحافة.

يشير جمال الدين الشيال — متفقاً ضمناً مع جاك تاجر — إلى اعتماد محمد علي النقل عن الغرب سبيلاً للإصلاح والنهضة، فقد كان محمد علي...“ يرى أن وسيلته للإصلاح هي النقل عن الغرب، وأن كل ما هو مفيد من النظم الغربية قد كتبه أصحابها. فإذا ترجم إليه استطاع أن يسير طبقاً له.“^(١٣) وكانت العلوم التي نقلها محمد علي حسبما

(٩) جاك تاجر: حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر. ص: ٧٤. وقد أكد تاجر استمرار الوضع على ما هو عليه في عصر سعيد.

(١٠) جاك تاجر: المصدر السابق. ص: ٨٦.

(١١) جاك تاجر. المصدر السابق. ص: ٩٧.

(١٢) انظر ترجمة محمد عثمان جلال في كتاب جاك تاجر: المصدر السابق. ص: ١٠١-١٠٢.

(١٣) جمال الدين الشيال: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي. ص: ٧٠.

أشار الشيال قبل ذلك هي العلوم الطبية والرياضية والحربية والعلوم الأدبية المتصلة بالتاريخ والجغرافيا والفلسفة والمنطق. وأوضح أن الترجمة كانت من الإيطالية ثم من الفرنسية "... إلى اللغتين التركية والعربية، فترجمت الكتب الحربية إلى اللغة التركية لأن معظم طلاب المدارس الحربية في عهدها الأول كانوا من أبناء المماليك والأتراك. كما ترجمت بعض كتب خاصة في التاريخ والسير وشئون الحكم إلى اللغة التركية إجابة لرغبة محمد علي، وليطلع عليها هو، ويفيد منها، أما بقية الكتب في الفنون والعلوم الأخرى فقد ترجمت إلى اللغة العربية لأن تلاميذ المدارس المدنية كانوا جلهم إن لم يكن كلهم من المصريين." (١٤)

في النص السابق نرى الشيال يشير إلى ما سبق أن أشار إليه جاك تاجر من ارتباط الترجمة بمسار الإصلاح وبناء الدولة العصرية أو لما يريده محمد علي من الكتب لمتمتعته الشخصية، كما يوضح - في غير موضع - أن الوالي كان صاحب الرغبة الأولى في الترجمة. يتضمن النص السابق إشارة إلى اللغات المستهدفة وهي التركية والعربية. لكنه لا يترك لنا المجال للاستنتاج، وإنما نخبرنا بوضوح أن التركية كانت للعلوم العسكرية ولما يطلبه الوالي لنفسه بينما العربية للمعارف غير الحربية مما يريد محمد علي أن يطلع عليه الطلاب.

يشير الشيال أيضاً إلى غرض جماهيري وهو تثقيف الشعب بشكل عام، ولكنه لم يتحقق، "... لا ننكر أن محمد علي خطأ مرة خطوة نحو تحقيق هذا الغرض فأمر بتأليف وترجمة كتابين لنشر الثقافة الطبية بين عامة الشعب ... غير أنه لم يتبع هذه الخطوة بخطوات أخر ... " (١٥)

ترى لطيفة الزيات أن القرن التاسع عشر لم يكن كله شيئاً واحداً وأن بدايته كانت مختلفة عن عقود الثلاث الأخيرة، وأن السبب في ذلك راجع إلى تغير المعادلة وتحول الدفة من الارتباط برغبة الحاكم إلى الارتباط بالطبقة الوسطى التي حصلت على تعليم جيد وعلى ثقافة واسعة وبدأت ترغب في قيادة الشعب بأفكارها الجديدة، ومنها الترجمة: "وبقيت حركة الترجمة محصورة في نطاق المواضيع العلمية، والفنون من طبية ورياضية وحربية، إلى أن خرجت الطبقة الوسطى إلى الوجود في أخريات أيام إسماعيل كقوة جبارة فعالة، فحررت الترجمة كما حررت الصحافة، وخرجت بها إلى ميدان نشر الثقافة العامة والأدب، بهدف تقديم مادة سهلة القراءة للقارئ العادي." (١٦) وهنا نرى أن الترجمة تستمر لتقوم بدور التثقيف والتعليم ولكنه تعليم حر يختاره بعض أفراد الشعب للبعض الآخر، وهو تعليم يستخدم الصحافة لا المدارس وسيطاً، وهو تعليم يتقبله المتعلم ثقة في المعلم الذي اختاره. بهذا رصدت لطيفة الزيات الاختلاف بين بداية القرن وبين نهايته: "وتميزت أيام إسماعيل

(١٤) جمال الدين الشيال : المصدر السابق. ص: ٤٦.

(١٥) جمال الدين الشيال: المصدر السابق. ص: ٢٠٥.

(١٦) لطيفة الزيات: حركة الترجمة الأدبية. ص: ٢٤.

بمميزات واضحة، فبينما كانت الأولى ترجمة رسمية تملّيها الدولة ويقوم بتنفيذها جماعات، كانت الثانية حركة ترجمة شعبية يتطلبها الجمهور وينقلها إليه أفراد من بين المترجمين بملء رغبتهم، وبينما كان العنصر الغالب على الكتب المترجمة في الحركة الأولى عنصر الطبيعيات والرياضيات والحريات، كان العنصر الغالب على الثانية عنصر العلوم القضائية والاجتماعية والأدب والشعر.^(١٧)

الترجمة هنا إذن حرة تمامًا والمترجم فيها صاحب المبادرة في اختيار ما يحبه ويريد أن ينقله إلى القراء. تقول لطيفة الزيات: "... ترجمنا في فترة البحث كتبًا قانونية وتاريخية وجغرافية واجتماعية وفلسفية ومنطقية وكتب تربية ومتفرقات أخرى، وترجمت أغلب هذه الكتب عن الفرنسية والإنجليزية، وكانت مترجمات فتحى زغلول من أبرز ما ترجم من علوم اجتماعية في فترة البحث، وقد فتحت آفاقًا جديدة للفكر العربي".^(١٨) والنص السابق يشير إلى تصور لطيفة الزيات أن هذه الأعمال لم تكن موضع اهتمام في المرحلة الأولى من تاريخ الترجمة، ولكنها بهذا تتجاهل إشارة الشيال إلى الموضوعات الأدبية ضمن الأعمال المترجمة. وقد أشارت في مواضع مختلفة إلى وجود ترجمات متنوعة لأعمال أدبية قبل بداية فترة بحثها، وأن الأعمال كانت غالبًا عن الفرنسية، معللة ذلك بحب العرب للفرنسيين ولدورهم التنويري في الشرق ولالإعجاب بشخصية نابليون، ولكنها أغفلت أن الفرنسية كانت اللغة الأكثر شيوعًا في التعليم المصري منذ عقود بخلاف اللغات الأخرى — ومنها الإنجليزية — التي كانت أقل حضورًا.

٨ المترجمون:

عرض الكتاب الثلاثة لجهود المترجمين بقدر من التفصيل، وخصوا المترجمين السوريين بحديث مستقل في بداية حديث كل منهم عن المترجمين، وذلك لما لعبه السوريون من دور في بداية الترجمة عمومًا في وقت لم يكن فيه للمصريين معرفة باللغات الأجنبية: الفرنسية في بداية القرن أو الإنجليزية قبل أن ينتشر تعليم اللغة الإنجليزية في مصر. وجاء الحديث عن السوريين استهلالًا في بداية الحديث عن جهود المترجمين المصريين. ولم يتضمن إشارات واضحة إلى تكوينهم اللغوي ودور التعليم في تكوينهم. كذلك، لم تعتمد الأعمال الثلاثة على دراسات عن التعليم في بلاد الشام لتوضيح هذا الدور. أشار جاك تاجر إلى دورهم المهم في بداية عهد محمد علي — ومع الحملة الفرنسية من قبله — لقلة الأيدي العاملة،

(١٧) لطيفة الزيات: المصدر السابق. ص: ٧٠.

(١٨) نفسه.

والطريف أن تاجر — وهو منهم — يضعهم مع الأجانب الوافدين إلى مصر، وقد تراجع دورهم ثم عاد مرة أخرى في بداية عهد إسماعيل "... فقد صار معظم المترجمين في الدواوين من السوريين الذين يمتازون بثقافة عالية تلقوها في المدارس التي أنشأتها البعثات الأمريكية والفرنسية ..."،^(١٩)

ركز الشيال على دور السوريين في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ورأى أنهم كانوا الفريق الأول من المترجمين الذين توفروا على الساحة ليستفيد منهم محمد علي دون إعداد مسبق ودون تخطيط؛ وإنما استطاعوا أن يلبوا حاجة الحاكم إليهم في بداية إنشاء المدارس ليتم عبرهم التواصل بين المعلمين الفرنسيين والإيطاليين من جهة والطلاب المصريين من جهة أخرى. فقد "... لجأ محمد علي، ولجأ كلوت بك إلى الاستعانة بمن في مصر من السوريين الذين يعرفون العربية واللغات الأوروبية."،^(٢٠) ولا ذكر هنا إلى تعليمهم وكفاءتهم وإنما مناط الأهمية راجع إلى توفرهم وإلى معرفتهم النسبية باللغات الأخرى في ظل عدم معرفة المصريين بها.

جاءت لطيفة الزيات لتتفق مع جاك تاجر في ملاحظته عن دور السوريين في ترجمة الأدب عندما رصدت مراحل تطور ترجمة الأدب فأرتها بدأت بأعمال فرنسية وبشكل غير منتظم لكنها انطلقت سريعاً مع توفر المترجمين من الإنجليزية بعد احتلال بريطانيا لمصر ومع توفر معرفة السوريين — قبل المصريين — باللغة الإنجليزية نتيجة مدارس الإرساليات التبشيرية في الشام. لكن هؤلاء المترجمين لم يكونوا قادرين على تحرير لغتهم وتطويرها، "وكانت الحاجة إلى محاولة تحديد اللغة حاجة شديدة، ولكن لم يكن من الممكن أن يقوم السوريون المسيحيون بهذه المهمة، فلكى تبرأ من المطاعن كان لا بد أن تنبع المحاولة من المسلمين أنفسهم ..."،^(٢١) ولكن لطيفة الزيات هنا تتبنى تصنيفاً إقليمياً ودينياً في نفس الوقت، فهي تميز بين فئتين: سوريين مسيحيين ومصريين مسلمين.

كان السوريون هم من قاموا بالمرحلة الأولى من الترجمة عامة ثم الترجمة الأدبية خاصة، ثم جاء بعدهم مترجمون مصريون ممن كانوا ضمن البعثات التعليمية التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا، وقد كان كلاهما غير كافٍ لأن السوريين أقل قدرة على تطوير الأسلوب في رأي الشيال والزيات، وكان العائدون من البعثات مشغولين بأعمال أخرى وكانت الترجمة نشاطاً ثانياً بالنسبة لهم مع انشغالهم العملية. من هنا كانت هناك حاجة ضرورية إلى إيجاد مترجمين محترفين ينالون تعليمًا مناسباً لهذا الغرض. هذا ما قاد إلى إنشاء مدرسة الألسن

(١٩) جاك تاجر: المصدر السابق. ص: ١١٠.

(٢٠) جمال الدين الشيال: المصدر السابق. ص ٧٣.

(٢١) لطيفة الزيات: المصدر السابق. ص: ٦٥.

التي اقترحها الطهطاوي ووافق عليها محمد علي. (٢٢)

٩ رفاعة الطهطاوي ومدرسة الألسن:

نحن إذن أمام ثلاث طبقات من المترجمين تكونت تباعاً: أولها طبقة المترجمين السوريين الذين استعان بهم كل من الفرنسيين ومحمد علي في البداية لمعرفة وجاهزيتهم للترجمة دون تدريب؛ تليهم طبقة من المبعوثين العائدين إلى مصر ممن تعلموا في أوروبا وصاروا قادرين على فهم الكتب في تخصصاتهم فاستخدمهم محمد علي في القيام بأعمالهم المهنية وفي نفس الوقت كلفهم ترجمة بعض الكتب البارزة في تخصصاتهم. أما الطبقة الأخيرة هي التي تكونت في مدرسة الألسن نتيجة تعليم منظم ومقصود. وقد ارتبط الحديث عن مدرسة الألسن باسم رفاعة الطهطاوي الذي كان صاحب اقتراح تأسيسها ومؤسسها ومديرها الأول -وفقاً لما يذكره المؤرخون. لا تكاد دراسة واحدة تشير إلى وجود متعلمين تخصصوا في الترجمة قبل إنشاء مدرسة الألسن. يأتي ذلك رغم أن جاك تاجر وجمال الدين الشيال يعودان إلى كتاب عمر طوسون أكثر من مرة ولكنهما لا يلاحظان أنه يدرج اسم رفاعة ضمن المبعوثين ولا أنه ينص على أن تخصصه كان الترجمة. (٢٣)

لكننا عند قراءة ما كتبه تاجر والشيال والزيات عن المدرسة نجد بعض الأمور المربكة. يبدأ الارتباك بملاحظة اسم المدرسة، ويستمر عندما نلاحظ أنها لم تكن تقوم بدور واحد وإنما كانت أكثر من مدرسة. وتبدو صورة هذه المدرسة ضبابية إلى حد ما عند كل من جمال الدين الشيال ولطيفة الزيات. فلم تكن لطيفة الزيات معنية ببيان دور مدرسة الألسن في إعداد المترجمين. لم تقم لطيفة الزيات بدراسة للمترجمين أنفسهم وطريقة تكوينهم وإنما اكتفت ببعض الإشارات العابرة لأن تركيزها على النصوص الأصلية وترجمتها إلى العربية، وبالتالي فهي لم تتوقف لتتحدث تفصيلاً عن المترجمين. كما أنها لم تهتم بجمع معلومات دقيقة عن الفترة السابقة لفترة بحثها وهي الفترة التي أنشئت فيها المدرسة وخرّجت مترجمين لعبوا أدواراً مهمة في تاريخ الترجمة خصوصاً وفي الحياة العلمية والثقافية المصرية بشكل عام. ولا نكاد نجد ذكراً لمدرسة الألسن أو لرفاعة الطهطاوي إلا في موضعين تقريباً في الجزء الأول من كتابها. فهي تتحدث في الهامش الأول في كتابها عن ترجمة رفاعة الطهطاوي لكتاب فينلون الذي نشر ترجمة له في بيروت، ولا تذكر شيئاً عن سبب الترجمة واختيار الطهطاوي لنص أدبي رغم أنه لم يكن معنياً بالأدب، ولا تعلق على اختيار بيروت دون

(٢٢) جمال الدين الشيال: المصدر السابق. ص: ٧٢.

(٢٣) انظر عمر طوسون: البعثات العلمية في عصر محمد علي ثم في عهدي عباس الأول وسعيد. الإسكندرية.

١٩٣٤. ص: ٢١ و ص: ٤٦.

القاهرة لنشر الكتاب. أما الموضوع الثاني الذي نراه مهماً فهو حديثها عن دور مدرسة الألسن في إعداد المترجمين وخصوصاً في الترجمة من الفرنسية إلى العربية: ” وكان من الطبيعي والأمر كذلك أن تخرج مدرسة الألسن عدداً ضخماً من أئمة المترجمين عن الفرنسية، ومنهم رفاة رافع الطهطاوي، وخليفة محمود وصالح مجدى وأبو السعود، وألا تخرج في هذه الفترة مترجماً واحداً عن الإنجليزية له كتب مترجمة ويعتد بها“^(٢٤) واضح أنها كانت معنية بالبحث عن الترجمة من الإنجليزية إلى العربية، لكنها أوردت معلومة خاطئة تماماً عن رفاة الطهطاوي حيث عدته من خريجي مدرسة الألسن. هذا قطعاً غير صحيح لأن رفاة هو من أسس المدرسة ورأسها وعلم فيها منذ بدايتها وبالتالي فهو ليس من خريجها، ولا يمكن أن نعتبر ترجماته من إنجازات هذه المدرسة. لم تتحدث لطيفة الزيات عن رفاة أو عن مدرسة الألسن بعد ذلك، وإنما انطلقت في سبيلها الأساسي تبحث عن الترجمات الإنجليزية. ورغم هذا الخطأ الفادح إلا أنها قدمت إنجازاً مهماً في الأجزاء التالية من الكتاب تستحق كل تقدير. يكفي أن نشير إلى ما جمعته من مادة بحثية وما قدمته من معلومات عن الترجمة الأدبية في فترة بحثها بكل دقة، واستخلاصها لتمييز واضح بين التعريب والترجمة باعتبار التعريب يسمح بحرية أكبر للمترجم ويفتح له باب التصرف مقابل الترجمة التي فيها حرص على النص المصدر ودقة كبيرة في نقله إلى اللغة الهدف. وقد استخلصت لطيفة الزيات هذا التمييز من استقراء مادتها بعناية واضحة.^(٢٥)

يخصص جمال الدين الشيال الفصل الأول من الباب الثاني في كتابه للحديث عن مدرسة الألسن، ويذكر تاريخ إنشائها فيقول إنها ”... أنشئت في أوائل سنة ١٢٥١ (١٨٣٥) باسم مدرسة الترجمة ثم غير اسمها فأصبح مدرسة الألسن.... وقد أنشئت هذه المدرسة تحقيقاً لاقتراح تقدم به رفاة لمحمد علي باشا ... وكان تلاميذ المدرسة في أول عهدها ثمانين تلميذاً، اختار رفاة معظمهم من مكاتب الأقاليم، وضم إليهم تلاميذ مدرسة الإدارة الملكية بعد إلغائها ... وكانت مدة الدراسة بالمدرسة خمس سنوات قد تزداد إلى ست ...“^(٢٦) وقد فصل القول في الصفحات الثلاث التالية عن تدريس اللغات والتركيز على الفرنسية والعربية دون غيرها لأن رفاة كان يجيد الفرنسية ولأن العربية هي لغة الطلاب الأصلية، ولم يكن هناك اهتمام بالتركية أو بالإنجليزية. وكثير من هذه المعلومات لا تصمد أمام أول مراجعة لما أورده جاك تاجر قبل جمال الدين الشيال عن المدرسة اعتماداً على الوثائق التي قدمها وأحال إليها في كتابه. يتضمن الاقتباس السابق عدداً من المشكلات أولاًها تتصل باسم المدرسة التي لا

(٢٤) لطيفة الزيات: المصدر السابق. ص: ٢٧.

(٢٥) لطيفة الزيات: المصدر السابق. ص: ١٣٨-١٣٩.

(٢٦) جمال الدين الشيال: المصدر السابق. ص: ٣٩.

نعرف متى تغيرت من مدرسة الترجمة إلى مدرسة الألسن، ولا يمكن أن نقبل أن تعتمد المدرسة اللغات التي يعرفها المدرسون والطلاب فقط، بل كان من الممكن أن يأتي إليها مدرسون آخرون لتعليم لغات أخرى.

والحقيقة أن صورة المدرسة لا تكاد تكون واضحة إلا بالرجوع إلى جاك تاجر الذي قدم صورة واضحة لها، وتوضح هذه الصورة عدة أمور لكنها تُبقي على لغز واحد يتعلق بالاسم.

يذكر جاك تاجر أن محمد علي أدرك أهمية تخفيف الحمل عن العائدين من البعثات وتركهم للتركيز على الأعمال التي تعلموها في بعثاتهم فرأى أن يؤسس مدرسة مستقلة للمترجمين. وينقل جاك تاجر معلوماته عن الوثائق الرسمية: ”ورد في الوثيقة المؤرخة ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٥١، الصادرة من مجلس الملكية المصرية إلى ديوان الخديو ما يأتي: «جاء في تقرير ناظر المجلس أنه بظل الحضرة الخديوية صار فتح المدارس وتدريس العلوم والفنون فأتت ثمرتها، وإن جناب الخديو رأى أنه يقتضي فتح مدرسة للترجمة من اللسان الفرنسي للسان العربي نظرًا لأهمية ذلك، وأنه وقع الاختيار على سلامك سراي المرحوم الدفتردار بك؛ ليكون مدرسة تستوعب خمسين طالبًا، تسمى مدرسة المترجمين، وأن يعهد برياستها للشيخ رفاعه، وأن ينتخب أولئك التلامذة مناصفة من القسمين: البحري، والقبلي ممن يقرأ ويكتب بشرط أن يكون صحيح البنية، وسنه ما بين أربع عشرة سنة إلى ثمان عشرة، وأن يكون عارفًا بلسانه الأصلي...»“ (٢٧)

يشير النص السابق إلى أن قرار التأسيس حدد الاسم ليكون مدرسة المترجمين وليس الألسن، وأن الغرض هو الترجمة من الفرنسية إلى العربية دون غيرها، وأن يكون رفاعه رئيسها وأن يكون عدد الطلاب خمسين طالبًا. ورغم أن تاجر يشير في الصفحة التالية إلى تغير اسم المدرسة إلى مدرسة الألسن اعتمادًا على نص أورده من الوقائع المصرية، لكن النص الوارد في الوقائع نفسه لم يذكر اسم مدرسة الألسن. ولا يفوتنا هنا أن نلاحظ اضطرابًا في استخدام مصطلحات من قبيل الملكية والخديو في زمن لم تكن فيه هذه المصطلحات قائمة.

أما الطبيعة المزدوجة لمدرسة الألسن باعتبارها مدرسة تجهيزية ومدرسة خصوصية أي متخصصة فإنه يرد في قول تاجر: ”ولما وضعت قوانين التعليم ولوائحه في سنة ١٨٣٦ أصبح الغرض منها تخريج المترجمين وإمداد المدارس الخصوصية الأخرى بتلاميذ يعرفون اللغة الفرنسية حتى إذا تخرجوا في هذه المدارس كانوا على معرفة باللغة التي يترجمون منها وبالعلم الذي يترجمون كتبه، ولعلنا نعد مدرسة الألسن مدرسة خصوصية إذا نظرنا إلى غرضها الأول من حيث إنها تستمد تلاميذها من المدارس التجهيزية، وتعددهم لوظائف الحكومة،

(٢٧) جاك تاجر: المصدر السابق. ص: ٣٣.

وهي كذلك مدرسة تجهيزية إذا نظرنا إلى غرضها الثاني من حيث إنها تعد تلاميذها للمدارس الخصوصية...“ (٢٨)

نحن إذن نعرف أن المدرسة اسمها مدرسة المترجمين، ونعرف أنها تقوم بدور مدرستين في وقت واحد، وأنها تركز على الترجمة من الفرنسية إلى العربية، ولكننا لا نعرف من أين جاء اسم مدرسة الألسن ومتى بدأ هذا الاستخدام بدلاً من اسم مدرسة المترجمين؛ خصوصاً عندما لا تدرس إلا لغتين فقط. ويتضح ارتباط هذه المدرسة بتحويلات كثيرة وانقطاعات متعددة بسبب ما فعله عباس في منتصف القرن ثم بسبب الأزمات المالية التي أدت إلى دمج المدرسة مع مدرسة الإدارة أو القانون أو إغلاقها ثم إعادة افتتاحها.

يبدو أننا بحاجة للعودة إلى الوثائق الرسمية وجمع كل ما يتصل منها باسم رفاة الطهطاوي وبمدرسة المترجمين من أجل إعادة كتابة تاريخ لمدرسة من أعرق المؤسسات التعليمية الحديثة والتي كانت — دون غيرها — قائمة لسد احتياج مباشر ولأنها في الحقيقة قامت على غير نموذج مسبق. يمكن أن نفترض الآن أن المدرسة لم تكن تحمل اسم مدرسة الألسن لوقت طويل، وربما لم يكن اسم مدرسة الألسن مرتبطاً برفاة الطهطاوي. وإنما كان رفاة الطهطاوي مؤسس مدرسة المترجمين. تكونت مدرسة المترجمين في ثلاثينيات القرن التاسع عشر ثم استمرت إلى أن أغلق عباس المدارس، وبقيت مغلقة لوقت طويل قبل أن تعود للعمل ضمن مدرسة أكبر هي مدرسة الإدارة والترجمة، وربما مع ما شهدته النصف الثاني من القرن التاسع عشر من توسع في تعليم اللغات الأخرى وخصوصاً النمساوية — الألمانية — ووجود مدرسة للسان القديم، فإن المدرسة دمجت تعليم اللغات المختلفة معاً ليصبح عملها تعليم اللغات ولتتسع لأبعد من مجال الترجمة. وهنا يصبح الاسم ممكناً. يبقى هذا افتراضاً يحتاج إلى إثبات أو نفي اعتماداً على ما تكشفه الوثائق الرسمية والسجلات والصحف المرتبطة بالقرن التاسع عشر. ومن اللافت أن الطهطاوي نفسه أشار إلى المدرسة في كتابه مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية باسم مدرسة الألسن أو مدرسة الألسن الأهلية والأجنبية دون أن يربط ذكرها بشخصه على خلاف عادته الاستطراذية الواضحة في الكتاب. (٢٩)

١٠ ملاحظات ختامية وأفق جديد:

تشير الأعمال الثلاثة التي توقفنا عندها في هذه الدراسة إلى بعض ملامح الترجمة

(٢٨) جاك تاجر: المصدر السابق. ص: ٣٤-٣٥.

(٢٩) رفاة الطهطاوي: مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية. ص: ٢٠٩.

والواقع اللغوي المتعدد الأطراف خلال القرن التاسع عشر. ورغم الجهد الكبير الذي بذله الكتاب الثلاثة، فإننا ما زلنا في حاجة إلى البحث عن مزيد من المعلومات والدقة لكي نكمل الصورة.

ولكي تقترب الصورة من الوضوح والكمال المرجوين، فإننا بحاجة إلى إعادة تصور مسار الترجمة خلال القرن التاسع عشر وفق دورها في مشروع النهضة وتحديد الأدوار التي لعبتها الترجمة في هذا المشروع أو في إظهار جوانب قصوره.

نحتاج أن نعود إلى البحث عن مشروع محمد علي الإصلاح لنرى أنه رأى الإصلاح مرتبطاً بتبني أحدث ما وصل إليه العالم المتقدم، وأن يحصل أهل البلاد على العلوم والفنون التي تنقصهم. وكان محمد علي قد حدد تلك العلوم والفنون اللازمة — ونقل عنه رفاة كلامه في مقدمة تخلص الإبريز — في أنها التي ترتبط بالجوانب المادية من الحضارة، أما الجوانب الروحية التي تتصل بالدين والأخلاق والقيم الروحية والأدب وغيرها فإننا لا نحتاج إليها لأننا متفوقون فيها. وقد وضع رفاة الطهطاوي الترجمة ضمن هذه العلوم التي تحتاج إليها أي أمة. فهل كان إدراج الترجمة ضمن تلك العلوم راجعاً لرفاعة الطهطاوي وبعيداً عن إرادة الوالي؟

تحقق ذلك باستقدام المعلمين والخبراء من الخارج، وإرسال البعثات للحصول على العلم من مصدره والعودة به إلى مصر لنشره وتطوير العمل على أساسه. وقد لعبت الترجمة عدة أدوار في هذا السبيل: فلها دور مستقل في نقل العلوم والمعارف. وقد بدأت هذا الدور منذ عشرينيات القرن التاسع عشر وما زالت تقوم به إلى اليوم. وكان له دور مساند عندما سهلت التواصل بين المعلمين والخبراء الأجانب الذين استخدمهم محمد علي خصوصاً في بداية مشروعه. كما كان لها نفس الدور المساند فيما يتصل بالبعثات التي كلف محمد علي من درسوا فيها بترجمة بعض الكتب المهمة. ويمكننا أن نضيف إليها دوراً آخر وخصوصاً في مجال ترجمة الكتب الأدبية والمعارف الإنسانية. فمنذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر صدرت ترجمات لكتب لا تقدم معلومات العلوم الطبيعية والطبية والهندسية والعسكرية فقط وإنما أصبحت هناك ترجمات أدبية وتاريخية واجتماعية كان بعضها يقدم للعرب تصور الأوروبيين عنهم وبعضها الآخر يقدم لهم أعمالاً أدبية ستكون محل إعجابهم ثم محط طموحهم في تطوير أدبهم لعقود طويلة. هنا يمكن أن نرى أن الترجمة تلعب دوراً ناقداً لمقولات مشروع النهضة كما طرحها محمد علي في بداية الربع الثاني من القرن التاسع عشر. فهي هنا تكشف أن الجوانب الأخرى التي تصور محمد علي أنها لا تحتاج تطويراً أو اتباعاً لأوروبا قد صارت ترى نفسها ويرى أهلها أنها لا ترقى إلى مستوى نظائرها في أوروبا.

[مصادر البحث ومراجعته]

- عباس محمود العقاد: عبقرى الإصلاح والتعليم — الإمام محمد عبده. القاهرة. مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة. ٢٠١٣.
- جورجى زيدان: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر. مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة. ٢٠١٢.
- رفاعة الطهطاوى: تخلص الإبريز في تلخيص باريز. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٧٤.
- : مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية. ويندسور. مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة. ٢٠١٨.
- جمال الدين الشبيل: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي. القاهرة. دار الفكر العربي. ١٩٥١.
- عمر طوسون: البعثات العلمية في عصر محمد علي ثم في عهدي عباس الأول وسعيد. الإسكندرية. ١٩٣٤.
- لطيفة الزيات: حركة الترجمة الأدبية. القاهرة. المركز القومي للترجمة. ٢٠١٨.
- جاك تاجر: حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر. القاهرة. مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة. ٢٠١٣.
- Magdi Guiguis & Nelly Van Doorn – Harder: The Emergence of the Modern Coptic Papacy. Caro/ New York. The American University in Cairo Press. 2011.